

في رحاب سلطان المجاهدين



د. عبد الوهيد نصري

بينما كانت السيارة تنطوي بنا الطريق نحو بلدة القرى في منطقة جبل العرب، وهي مسقط رأس سلطان باشا الأطرش ومراعي صباه، في وعد للقاء قائد الثورة السورية النصري...

... بدأت الصور تتلاحق في ذاكرتي... عن حياة وعفاج سلطان الأطرش وكنهها اسراب لها، تتزاحم وهي تقصد مورد مشربها، الوقت كان في نهاية التحريف، وبالتحديد يوم الأربعاء الواقع في ٢٩ تشرين الأول لعام ١٩١٠ تلاشت الصور أمام مشهد الصخور السوداء وجاميد المرتفعات وأسوار القروم المكلفة بموالي العنب والتسجار النفاخ، بعد مغادرة مدينة السويداء باتجاه بلدة القرى، ينتاب شعور غريب... إنك في حرم الرجولة والشحم ورغم صمت الطبيعة المديعة لياك نقرأ فيها عناوين الطيب والرجولة والصق...

في ذلك الوسط... استقبال سلطان الأطرش الضيفات في الخامس من آذار لعام ١٩٨٨، في أسرة عرفت بالتبذل والبرومة والوطنية، فولد سلطان هو الشهيد نوح الأطرش... أعده الإثراك مع بعض زعماء جبل العرب شقفا في دمشق عام ١٩١٠ لولائه الوطنية...

ورث سلطان عن والده حب الوطن والإيمان بالجهاد ضد أعداء الأمة العربية وتمرس بالفروسية والمطولة في تنجابه، حيث قاد المقاومة ضد الاتراك العثمانيين وانضم إلى قوات الثورة العربية وكان أول من رفع علمها فوق قلعة شحذ بعد تحريرها...

كما أنه وكتب قوائمها إلى دمشق وكتب دخل دار الحكومة مع كوكبة من المجاهدين ورفع علم الثورة العربية على ساريتها... بعد وصولنا إلى القرى وهي ناحية عدد سكانها لا يزيد انداك عن خمسة آلاف نسمة... لصدا معايشة منزله للتواضع بحجارته السوداء البرقالية الكبيرة، البيت يحمل مسحة تاريخية، كان عبق التاريخ من عهد فيليب العربي قد تصوع في أرجائه... وفي الممرات قاعة مجاورة تضم متحفا لتكريات سلطان واسلحته وصورا لشكريته مع بعض الرؤساء العرب... كتركيس جعل عبد القاصر والقائد الثالث حافظ الأسد ومع الكثير من المجاهدين...

في صالة الضيافة التفتت المجاهد الكبير سلطان باشا الأطرش - بقامته وقبيلته ووجهه البشوش... وشأريه الكثيف... وقد خطبها الشيب... عندما صافحته... شعرت أنني أمسك بيد رجل من طراز فريد... رجل... ليس كباقي الرجال... كانك تصالح... جلا... طويلا مكثنا... كانك تصالح جبل العرب بكامله... تصالح الرجولة والبرومة والعفوان...

سلطان الأطرش يتمتع بدائرة غنية وعريضة قوية... وعمره انداك قد تجاوز التسعين عاما... في حديثه كان حازما... ولقا... مع تواضع جم وتكرار لذات بلغ في القلب... شعرت أنني أمام سليل وطني وإخلاقي شائق... أمام مدرسة للجهاد والتفسيلا لامة... للاجيال...

من عادة سلطان عدم الإكالة في حديثه... بسبب وضعه الصحي انداك... حسب ماطلبه أخوه السيد زيد الأطرش... لكنه عندما علم بدعوى من حلب وأنتى مكلف بوضع منحج للتاريخ لوزارة التربية والتعليم... في الحديث... في الحديث... في الحديث... الساعة والنصف، كثف من خالته الكثير من أسرار الثورة السورية الكبرى التي أعظمها ولقيا سنة ١٩٢٦...

بدأ حديثه بقوله: أنا لاأطلب غير الحقيقة التاريخية، وأن الثورة السورية الكبرى لم تعط حقلها من الدراسة والتحليل واستشهد على ذلك برأي لأحد المؤرخين الأجانب يذكر فيه أن سبب خسارة الجنرال ميشو وهزيمته... نفاذ الماء عند الفرنسيين في المعركة لانخفاض من بطولات الثوار العرب... وأوضح قائلا: في الحقيقة لقد كان الفرنسيون يعسكرون في المنطقة التي فيها نبع الماء...

وعند بحثنا التكريات مع قائد الثورة إلى سياسة فرنسا مع بداية الاحتلال بتقسيم سورية إلى دويلات وفصل جبل العرب عن الوطن الأم وفرض الغرامات وسلب الأموال والفرنسة الثقافية بالإضافة إلى سوء سياسة وتصرف «كارييه»، حاكم الجبل يخروجه عن العادات والتقاليد العربية ولاسيما باعتقال الثائر أدهم جندر الذي كان ملاخفا من قبل الفرنسيين، والذي قصد القرى ملتجئا بحمي سلطان الأطرش وشيافه، حيث قام الفرنسيون باعتقاله...

وهذا واضح قائد الثورة أمرا جديدا... بقوله... أن أدهم جندر حشر في عياني ولم أعلم بحضوره فقد اغتله الفرنسيون بعد لتسليمهم به، وعندما حضرته للقرى من أجهام كنت أحضره مع الثوار في قرية أم الزمان، وعامت أن الفرنسيين اعتقلوا شخصا جاء بقلب حماني، غشيت وللتو جمعت الثوار وحاصرت قلعة السويداء مطالبا بتسليم أدهم جندر وجرى قتال شديد وكان ذلك الغليل المبائر لقيام الثورة، وعقب على ذلك بقوله: لم أكن أعرف أدهم جندر ولم أصادفه في حياتي ولو حضر الآن أعمى لا أعرفه...

ولكنني قمت بواجبي نحو تآثر عربي قصد حماني، وانكر حديثه عن معركة المزرعة وهي معركة حاسمة خاضها الثوار ضد حملة جرارة فرنسية قصدت جبل العرب قوامها ١٣ ألف جندي بقيادة الجنرال ميشو وهي مجهزة بأحدث الآليات والمعدات والمدافع...

وقد أمر سلطان الثوار بعدم التعرض للحملة ومراقبتها عن بعد حتى يطمئن العدو، وبدأ الهجوم على القوات الفرنسية من خلال تحصين محكم... تكبد الفرنسيون أثر المعركة /١٥٠٠/ جندي بين قتيل وجريح مما اضطر ميشو للهروب باتجاه دمشق واسقط الثوار طائرة وغنمو عتادا واسلحة كثيرة تركها الفرنسيون...

وتوقف سلطان الأطرش مليا عند معركة جديدة... أغلبها التاريخ وهي معركة قبضة، وقد خاضها بعد عوبته من الزين وكان يقويعها للآزم الأول الفرنسي سياتر، ورغم غارق العناد والعدة والتضخيرات التي وجهت له بعدم خوضها... فقد خاض الثوار معركة شديدة الوطيس لمدة أربع ساعات ونصف قتل فيها من الفرنسيين ٢٠٠/ جنديا وأسر قائد الحملة نفسه وكان إلى جانب سلطان أخواه زيد وعلي، في تلك المعركة...

وخدم سلطان باشا الأطرش حديثه عن المؤتمر الوطني الذي ضم ممثلي الثوار في سورية بأن في بلدة «رمة الفصور» وضعت الأسس لإعلان الثورة السورية الكبرى وكان إلى جانبه المجاهد الدكتور عبد الرحمن الشهبندر عضو مجلس قيادة الثورة والناطق الرسمي باسمها...

كما تحدث عن دور المحافل السورية في التفاف من أجل الاستقلال الوطني مشيدا بدور ثورة شهاب وثور حلب الشهباء... ومن التعبيرات الجميلة التي كان يستخدمها في حديثه عن المعارك والقتال قوله: عندما وقع الشر أو اشتعل الشر وهو تعبير تليف عن وميلات الحروب، رحمه الله، و ذلك خلق المجاهدين...

والفتنة أخيرا بعضا من نص بيان سلطان باشا الأطرش بأعلانه الثورة السورية الكبرى جاء فيه: بالاحقاد العرب الأصحاب هذا يوم ينفع المجاهدين جهادهم والعاملين في سبيل الحرية والاستقلال عملهم إليها السوريون لقد التبت التجارب أن الحق يؤخذ ولايعطى، فلماذا حلقا بعد السيف ولتطلب الموت... نوب لنا الصباء...

جريدة النهار - حلب - ١١/٣/٢٠٠٨ - ٨٣/٣/٢٠٠٨